حصته منه ، ولكل آونة حقها فيه ، ولا أمل له فى النجاح إن لم يكن مستقرا على قواعد الفطرة الباقية ، لا على الأهواء العارضة ، والمآرب الفردية الخاوية .

كانت بواعث الحياة القوية خلاصة مرامى العقاد ، والحياة القوية فى نظر العقاد هى حياة التعبير الصادق الجميل ، والحياة الضعيفة هى حياة التعبير الكاذب الشائه ، الحياة القوية عند العقاد هى الشعور النبيل المجيد ، وهى طلب العزة والسيادة ، وهى التعمق فى أسرار الفلسفة والعلوم ، وهى الإقدام الى مجاهل الأرض وأطراف البحار ، وهى الفتنة بالطبيعة ، وهى إجادة العمل وإجادة القول ، شعور دافق وسرائر متيقظة . فإذا كان البحث فى اللغة لا يخدم من بعض الوجوه هذه الملامح فلا بأس عليك فى اطراحه .

ومنذ حمل العقاد مسئولية القلم رأى من واجبه أن يحارب ما يعوق النهضة ، وربما فتن العقاد بملامح الحياة القوية أكثر من فتنته بتحليل اللغة ، هذا حق ، ولكن لكل جيل أهدافه ، ولكل باحث منزعه ، ومنزع العقاد واضح لاشبهة فيه ، كان يقول : لا فلاح لأمة لاتصحح فيها مقاييس الآداب ، ولا ينظر فيها اليها النظر الصائب القويم ، لأن الأمم التى تضل مقاييس آدابها تضل مقاييس حياتها ، والأمم التى لاتعرف الشعور الحق مكتوبا مصورا لاتعرفه محسوسا عاملا .

والعقاد يعلم ماقد يوجه الى منطقة من بعض الاعتراض ، ولذلك يدفع ماقد يظن من شبهة التحيز الى طباع دون طباع ، فنحن نقبل أدبا يناقض بعضه بعضا ، نحن نقبل قصائد كثيرة ليس بينها من التشابه شىء كثير ، فالحياة نامية متحركة مضطربة متحولة ، لذلك يحذر العقاد من كراهة الضوابط المختلفة ، ويحذر من الغفلة عن المقاييس المتشعبة ، يحذر العقاد من التمييز القاطع بين الجيد والردىء . وماكانت مقاييس العلم مضبوطة مقدرة إلا لأنها محصورة مجردة من اللحم والدم ، فإذا عرفت القضية الهندسيه مرة فقد عرفتها على حقيقتها الأخيرة المقيدة التى لاتتغير أبدا ، وأحطت بجميع جوانبها ، لأن جوانبها قابلة لأن يحاط بها ، أما الحقائق النفسية فليست على هذا النمط ، لأنها قد تتراءى لك فى كل مرة بلون جديد وصورة متغيرة ، واليك غريزة الحب مثلا ، وهى من الغرائز المركبة فى كل نفس ، لكن كم ذا بينها من التغاير فى القوى والدوافع والأغراض والأطوار والمعانى .

وبعبارة أخرى إن الحياة القوية ليست قوالب مصنوعة ، ولا هى حقائق آلية ، نحن